اعتناق «هولاكو» إيلخان التتار الإسلام
(٦٥٤-٦٦٤هـ / ١٢٥٦-١٢٦٥م)

د. محمد عبد الغنى الأشقر

اعتناق «هولاكو» إيلخان التتار الإسلام

إن الأمانة العلمية تحتم علىَّ أنْ أذكُرَ إن موضوع هذا البحث ـ وهو اعتناق هولاكو إيلخان[1] التتار الإسلام ـ لم أسْعَ إليه، وأن كل ما حدث هو أنه أثناء قراءتى للمؤرخ ابن الساعى فى كتابه «تاريخ الخلفاء العباسيين» استوقفتنى عبارة نصها: «وأما الطاغى هولاكو فإنه أسلم قبل وفاته بشهرين»[2]، فلم أستطع أن أتملك نفسى لأدَعَ هذه العبارة تَمُرّ علىَّ مرور الكرام.

وبصرف النظر عمَّا إذا كان هولاكو قد اعتنق الإسلام من عدمه، فإن هذا لا يجدى فى الأمر شيئًا، فالله غَنِىٌّ عن العالمين، ناهيك عن أن هولاكو أسلم وهو على فراش الموت، وأنَّ كل ما حاولته هنا هو إبراز هذا النص التاريخى النادر.

ولعل ذلك الموقف يُذَكِّرنى بفرعون مصر، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]، فلم يُجْدِ قوله شيئًا، بل ذهبت صرخاته أدراج الرياح، وكان قضاء الله وقدره أسبق من صيحاته، فمات كافرًا.

وإذا كان هولاكو طاغية واعتنق الإسلام، فإن هذا ليس بغريب، فكثير من ملوك المسلمين الذين كان لهم باع طويل فى خدمة الإسلام والمسلمين كانوا طُغَاةً فى حُكمهم، متجبرين فى سياستهم، فليس كل حاكم مسلم عادلاً.

---

(١) إيلخان، بمعنى نائب الخان، وعلى ذلك فإن الإيلخانية هى المملكة التابعة للخانية التى يحكمها الخان الأعظم. انظر: رجب محمد عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، ١٩٨٦، ص٤.

(٢) على بن أنجب الشهير بابن الساعى، تاريخ الخلفاء العباسيين، تقديم عبد الرحيم يوسف الجمل، القاهرة ١٩٩٣، ص١٦٢، ١٦٣.

(٣) قرآن كريم، سورة يونس، الآية رقم (٩٠).

وإنما الغريب فى الأمر هو أن هولاكو فى مكاتباته لملوك المسلمين ـ قبل سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ـ كان حريصًا على أن يستعين بآيات من القرآن الكريم تُبرر نَصْرَه على المسلمين، وذلك بمساعدة رجال الدين المسلمين الذين دخلوا فى خدمته خشية بأسه، حيث إنه بات من الواضح أن هولاكو لم يكن على دراية بما يحتويه القرآن الكريم من آياتٍ وسُوَر.

لذلك بعث هولاكو برسالة إلى الخليفة العباسى المعتصم قبل زحفه على بغداد نصها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٤).

وإذا كان انتشار الإسلام بين التتار أمرًا مثيرًا للدهشة منذ الوهلة الأولى لدى عامة الناس، فإن المهتمين بدراسة التاريخ الإسلامى ـ وخاصة المتخصصين منهم ـ لم يعد هذا الموضوع بالنسبة لهم محل جدل، خاصة بعد أن نشر الدكتور رجب محمد عبد الحليم كتابه تحت عنوان (انتشار الإسلام بين المغول)، والذى ذكر فى مقدمته بأسلوب يفيد التعجب قائلاً: «**أرأيت مهزومًا ينتصر على هازمه ويجعله طَوْعَ يديه؟ أرأيت مقهورًا يتغلب على قاهريه ويجعلهم حُماته والمدافعين عنه؟ أرأيت ضعيفًا يجعل القوى الذى أذله يركع ويتشبث بتلابيبه ويستنجد به؟ أما المهزوم والمقهور فهم المسلمون، وأما القاهر والمتغلب والمتسلط فهم التتار**». حدث هذا عندما استرد الإسلام أنفاسه، وبدأ ينظم صفوفه، ويحشد جنده، حى صرع هذه الوثنية التترية، وحَوَّلَ التتار بالتدريج ـ وفى فترة زمنية قصيرة ـ إلى مسلمين(٥).

أما موضوع البحث ـ وهو اعتناق هولاكو الإسلام ـ فهو بالطبع أمر مثير للدهشة لمعظم الباحثين، ذلك لأنه لم يتعرض لهذا الموضوع أحد من المؤرخين المعاصرين أو المحدثين، إلا الإمام على بن أنجب، الشهير بابن الساعى، والمتوفى سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، أى بعد وفاة هولاكو بحوالى عشر سنوات، حيث إن هولاكو توفى فى سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م(٦).

(٤) قرآن كريم، سورة النمل، الآية رقم (٣٤).

(٥) رجب محمد عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول، ص٥.

(٦) ابن الساعى، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص١٦٢، ١٦٣.

وليس الأمر كذلك فحسب، ولكن الأمر الذى يثير الدهشة هو كيف لهذا الطاغية أن يعتنق الإسلام وهو الذى أباح لجنوده بغدادَ أربعين يومًا، فَعَلُوا بأهلها الأهوال، وأشعل فيها النار، وهدم القصور والدور، والمساجد، وألقى بالكتب فى نهر دجلة، ووضع السيف فى رقاب أهلها، حتى بلغ من قتل منهم أربعة وعشرين ألفًا من رجال العلم فقط، ناهيك بغيرهم من العامة والجند الذين بلغوا قرابة المليونين، وعلى رأسهم الخليفة المستعصم نفسه وأولاده وأهل بيته، وقد أصاب من الجزيرة الفراتية وبلاد الشام - مثل حلب ودمشق وغيرهما - مثلما أصاب بغداد، فكان مُصاب المسلمين فادحًا ورهيبًا[٧].

وليس الهدف من هذا البحث هو الدفاع عن هولاكو، فقد اتفقت كل المصادر المعاصرة، وجميع المؤرخين - المعاصرين منهم والمُحْدَثين - على أن هولاكو طاغية، وكافر، إلى غير ذلك من الصفات القبيحة التى وُصِفَ بها من قِبَلِهِمْ، ولكن الهدف من هذا البحث هو عَمَّا إذا كان هولاكو إيلخان مغول إيران وتوابعها قد مات على الوثنية كما يبدو لمعظم الباحثين، أم إنه اعتنق الإسلام وهو على فراش الموت قبل وفاته بحوالى شهرين على حسب قول الإمام ابن الساعى[٨]، بصرف النظر عَمَّا إذا كان هولاكو آمن بالدعوة الإسلامية عن عقيدة وإيمان بالله، والاعتراف بمحمد ﷺ رسولاً، وهذا ما نستبعده على هذا الطاغية.. أو أنه دخل الإسلام بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت، وذلك بعد أن تغلغل الإسلام داخل بيته بإسلام ابنه «تاكودار»، ودخول «بركة خان» سلطان القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق فى الإسلام، والذى كان أول من أسلم من ملوك التتار كافة سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، والذى غضب لغزو هولاكو لبغداد، وتوعده بالقتال جزاء ما أصاب خليفة المسلمين وبغداد من دمار وقتل وتخريب!.. إذًا ما هو الغريب فى أن يعتنق هولاكو الإسلام، خاصة أن الإسلام أصبح أمرًا مفروضًا عليه داخل بيته وبين بنى جنسه من التتار[٩]؟

(٧) ابن العبرى، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون، الطيب الملطى المعروف بابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠م، ص٤٨٢-٤٩٠، وابن بطوطة، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الشهير باسم رحلة ابن بطوطة، بيروت، ب/ت. ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٨) ابن الساعى، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٩) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦، جـ١، ص ٢٩٤، والرمزى، تلفيق الأخبار وتلقيم الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، طبعة أورنبوغ، ١٩٠٨، جـ١، ص٤٠٢، والقلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩١٤، جـ٤، ص٤٢٠.

وقبل التعرض إلى سرد قصة إسلام هولاكو؛ سوف نستعرض بعض المحاولات من جانب الديانة المسيحية لكسب هولاكو لاعتناق المسيحية، ثم التعرض للمؤثرات التى أحاطت بهولاكو من جانب الزوجات المسلمات والعلماء، ورجال الدين المتمثلين فى الطرق الصوفية، حتى انتهى به المطاف إلى اعتناق الإسلام على يد الطريقة الصوفية الرفاعية، التى أسسها أحمد الرفاعى المتوفى فى سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م فى البصرة[١٠].

انتهز أصحاب الديانة المسيحية فرصة ظهور التتار ـ الذين كان معظمهم يدين بالوثنية[١١] ـ على مسرح الأحداث (وقبل سقوط بغداد) سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م على يد هولاكو، وعملوا على نشر ديانتهم بين هؤلاء التتار تحقيقًا لأهدافهم الخاصة التى كانت ترمى إلى وقف انتشار الإسلام، وأن يحدوا من ضغطه الذى كانت تتعرض له معاقل المسيحية فى الشرق والغرب. ولقد بدأ تأثير الديانة المسيحية على هولاكو من خلال أمه المسيحية، وزوجته «دوقوز خاتون» التى كانت مسيحية أيضًا. وكان المسيحيون ينظرون إلى هولاكو ـ برغم عدم اعتناقه المسيحية ـ وإلى زوجته كما لو كانا قسطنطين الجديد وهيلانة. وقد دفعته زوجته بما كان لها من نفوذ إلى أن يُظهر عطفًا شديدًا على المسيحيين، وعلى النساطرة منهم بوجه خاص، كما تحمس هولاكو لغزو بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، بعد أن أمَدَّهُ مسيحيو الأرمن، والكرج[١٢] بالمساعدات اللازمة، فقد ضمت جيوشه وحداتٍ عسكريةً من الأرمن والكرج المسيحيين، الذين كانوا أول من اقتحم أسوار بغداد، واشتهروا بشدتهم وقسوتهم فى التخريب والتدمير. واستمر هذا

(١٠) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٩، والديار بكرى، الخميس فى أحوال أنفس نفيس، القاهرة، ١٢٨٣هـ، جـ٢، ص٣٨٠.

(١١) كان التتار يدينون بالوثنية فيما يعرف بالديانة الشامانية البدائية التى تقوم على عبادة الكواكب والأصنام وأرواح الأجداد القدامى، والقليل منهم كان يدين بالنصرانية، ومنهم من كان لا يتدين بدين معين. انظر: ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة، ١٩٧٢، جـ٧، ص٢٢، وتوماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٥١.

(١٢) الكرج، شعب نصرانى كان يسكن المنطقة التى تقع شمال أرمنية وتجاور بحر قزوين من الشرق، وحدود دولة الروم البيزنطين من الغرب، وكانت عاصمتهم مدينة تفليس، وقد خضعوا للمغول، وصاروا يحاربون معهم ضد المسلمين، وبلادهم تسمى الآن كرجستان أو جورجيا. انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، بيروت، ١٩٨٤، جـ٤، ص ٣٠٦، ٤٤٦، وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٦٨، جـ٥، ص ١١٠٦، ١١٠٧.

التعاون أثناء غزو هولاكو لبلاد الشام، فقد دخل «هيثوم» ملك أرمينيا المسيحى ومعه حليفه وزوج ابنته «بوهمند» السادس ملك أنطاكية الصليبى فى حلف مع هولاكو، ورسموا خطة الغزو فى لقاء جمع بينهم. وانضمت جيوش هيثوم إلى هولاكو، وقدم البطريق الأرمنى لمنحه البركة، مما أعطى مسحة الطابع الصليبى لحملة هولاكو على بلاد الشام. وانتهز هذه الفرصة البابا إسكندر الرابع، فأرسل إلى هولاكو بعثة تحبب إليه اعتناق المسيحية، وابتهج المسيحيون[١٣] فى آسيا لهذا العنصر التترى.

وبعد أن نجح هولاكو فى تدمير بغداد وفتح بلاد الشام، جعل نائبه فيها «كتبغا»، الذى كان يميل إلى النصرانية، ولكنه لم يعتنقها، حتى لا يكون خارجًا على اليساق[١٤] مثله فى ذلك مثل هولاكو الذى لم يعتنق المسيحية، بل كان مثل جده جنكيز خان وباقى التتار على الوثنية البوذية[١٥].

وعلى الرغم من عدم اعتناق هولاكو للمسيحية، فإنَّ مظاهر التعاون والتحالف استمرت بين أوربا وصليبّيى الشام وملوك أرمينيا وجورجيا (الكرج) من جهة، وبين التتار فى إيران من جهة أخرى، وخاصة بعد هزيمة التتار فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وقيام النزاع والصراع بين هولاكو وبين «بركة خان» سلطان التتار فى بلاد القفجاق، الذى أعلن إسلامه، وجعل الإسلام الدين الرسمى لدولته، مما أضعف من تتار إيران. وهكذا زُوِّدَ السلطان بيبرس فى مصر بحليف جديد يتمثل فى «بركة خان» المسلم، مما أثار مخاوف جماعات المسيحيين الشرقيين، مثل الأرمن، والمارون، والقبط، والنساطرة، وكذلك فقد عاضدوا هولاكو ليعيد الكَرَّةَ للزحف على

(١٣) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب، معارف عامة برقم ٥٤٩، جـ٢٩، ورقة ١٠ب، ومصطفى بدر، مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة ب/ت، ص٧، وفؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، القاهرة ١٩٨٠،

Saunders, j.j, The History Of The Mongol Conquests, London, 1971, pp. 79, 80, 98.

(١٤) اليساق أو اليسق، أصله سى بيا، وهو لفظ مركب من كلمتين: (س) بمعنى ثلاثة بالفارسى، و(بيان) بمعنى الترتيب بالمغولى، وعلى ذلك فمعنى كلمة اليساق هو التراتيب الثلاثة، وسبب ذلك فيما يقول ابن تغرى بردى: أن جنكيز خان كان قسم ممالكه فى أولاده الثلاثة، وأوصاهم يقولون: س (بيا)، ثم حرفوها إلى (يسق). انظر: ابن تغرى بردى، جـ٧، ص ١٨٣، والقلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٣١١.

(15) Saunders, j.j, The History Of The Mongol , pp. 117, 189.

مصر حتى يستعيدوا أورشليم مرة ثانية. ويوجهوا ضربة قاضية للإسلام. من هنا كان تحالف هولاكو مع المسيحيين الشرقيين والغرب، ولم يكن نابعًا عن كراهيته للإسلام بقدر ما كان نابعًا من الخوف من التحالف الذى تم بين مصر وبين تتار القفجاق، فقد أصبح هولاكو بين شقى الرَّحَى فى الشمال، حيث تتار القفجاق المسلمون، وفى الغرب، حيث المماليك فى مصر. وهذا يعنى أن العطف الذى أبداه هولاكو تجاه المسيحيين كان هدفه الاهتمام بمصالحه الخاصة، وتوفير نوع من الاستقرار الداخلى، بإقامة نوع من التوازن بين المسيحيين والمسلمين.

أمّا لتوفير الأمن الخارجى لدولته، فقد اضطره ذلك لإقامة بعض الاتصالات مع بابوات أوربا وملوكها لاستغلال تلك القوى المعادية فى حربه مع المماليك فى مصر والشام[١٦]. وهذا يعنى ببساطة أن المسيحية ـ متمثلة فى الصليبية من ملوك وبابوية ـ لم تحقق نصرًا ماديًا لهولاكو على الإسلام، متمثلا فى دولة المماليك فى مصر والشام، والتى ألحقت الهزيمة بالتتار فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، مِمَّا أدَّى إلى أن يعزف هولاكو عن اعتناق المسيحية وينصرف عنها[١٧].

أما عن المؤثرات التى دفعت هولاكو لاعتناق الإسلام قبل وفاته، فلم تكن وليدة يوم وليلة بقدر ما كانت عاملاً مساعدًا أدى بهولاكو فى النهاية إلى دليل مادى كان يبحث عنه لاعتناق أى ديانة، وجاء الدليل المادى هذا على يد رجال الطَّريقة الصوفية الرفاعية، كما سيرد فيما بعد.

وكان على رأس هذه المؤثرات: تأثير الزوجات المسلمات على هولاكو، فيحدثنا ابن العبرى المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث ـ وكذلك رشيد الدين الهمذانى ـ أن هولاكو عندما فتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م استولى على سبعمائة من نساء الخليفة المستعصم بعد قتله[١٨]. ويخبرنا رشيد الدين الهمذانى أن أحمد تكودار بن هولاكو

(١٦) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٤٢، ٦٢٩، وابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧، ص٧٩، ٨٠، ٢٩٨، ٣٠٦، جـ٨ ص ٩٦، ٩٧، ١٣٦، ١٣٩.

(١٧) رجب محمد عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول، ص٢٢.

(١٨) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٥، ورشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت، وفؤاد عبد المعطى الصياد، القاهرة، ب/ت، م٢، جـ١، ص٢٩٢، جـ٢، ص٦، ٩٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٧٠.

الذى اعتنق الإسلام، كان السبب المباشر فى إسلام هولاكو، وكانت زوجاته مسلمات[١٩].

كما يذكر المقريزى وابن تغرى بردى أن الأمير «طرغاى» زوج بنت هولاكو قد اعتنق الإسلام، وذلك أثناء حديثهما عن طائفة التتار الأويراتية[٢٠]، مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن بنت هولاكو اعتنقت الإسلام أيضًا، وهذا يعنى ببساطة أن هولاكو انحصر داخل مثلث إسلامى، تمثلت أضلاعه فى زوجاته وأبنائه وبناته.

كذلك كان للوزراء والموظفين والكُتَّاب المسلمين أثرٌ على هولاكو، فمن العجيب أن هولاكو الذى حطَّم الخلافة العباسية فى بغداد، والذى يعتبر أكبر عدو للإسلام، كان يشمل برعايته اثنين من كبار الكُتَّاب المسلمين فى زمانه، أحدهما نصيرالدين الطُّوسى، والآخر عطا ملك الجوينى[٢١]. بل إنه جعل نصير الدين الطوسى مستشارًا ووزيرًا له، وكان هذا الرجل قد دخل فى خدمة هولاكو، وكان مسموع الكلمة عنده، وكان من العلماء البارزين فى شتى العلوم فى عصره، وخاصة علم الفلك، ولذلك سمح له هولاكو ببناء مرصد ضخم فى مدينة مراغة[٢٢] بأذربيجان، نَقَلَ إليه عددًا كبيرًا من كتب ووثائق الأوقاف التى لم يُصِبْهَا التلف ببغداد. كما بنى هذا الوزير العالم دار حكمة، وعَيَّنَ بها بعض الفلاسفة، ورَتَّبَ لكل واحد منهم دِرْهَمَيْنِ فى اليوم. كما بنى دارَ طبٍّ، عيَّن فيها الأطباء، ورتب لكل واحد فيهم درهمين. ومدرسة، رتب لكل فقيه فيها درهمًا. ودارَ حديث، ورتب لكل محدث فيها درهمًا أيضًا[٢٣]. وقد امتدت سلطة هذا الوزير العالم حتى صار تحت حكمه جميع الأوقاف فى جميع البلاد التى كانت تحت حكم التتار فى إيلخانية إيران[٢٤].

(١٩) رشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ، جـ٢، ص ١٢٥، ٩٧٠.

(٢٠) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص٣٦، ٣٩، ١١٧، ١١٨، وابن تغرى بردى، النجوم، جـ٨، ص٢٥٨.

(٢١) ابن الفوطى، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، بغداد، ١٣٥١هـ، ص٣٥٣، وبراون، تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، تعريب إبراهيم أمين الشواربى، القاهرة، ١٩٥٤، ص٥٦٤.

(٢٢) مراغة: مدينة مشهورة فى بلاد أذربيجان، كثيرة السكان، غزيرة الأشجار، كثيرة الأنهار، وكانت مشتى لإليخانات إيران، وهى مدينة مُحدثة، اتخذت اسمها هذا أيام مروان بن محمد، آخر خلفاء بنى أمية. انظر: ابن الفوطى، الحوادث، حاشية (١)، ص (٢٩)، والقلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢٣) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٤٢٠، ٤٢١، والعينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب برقم ٨٢٠٣ ح، جـ٢٢، ورقة ١٠٩ (أ).

(٢٤) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٥٠٠.

ولاشك أن هذا الرجل الذى امتد به العمر حتى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م - أى أنه توفى بعد هولاكو بحوالى إحدى عشرة سنة - كان له تأثير على هولاكو الذى كان مُحبًا للعلماء ورجال الدين من كافة الملل والنحل، كما أن ما قام به هذا العالم فى مراغة قد أثار نهضة فى العلوم الإسلامية التى كانت قد تعرضت لضربة شديدة عقب القضاء على عدد كبير من العلماء والفقهاء أثناء غزو هولاكو لبغداد وغيرها من مدن الإسلام فى إيران والعراق والشام(٢٥).

ولم يكن نصير الدين الطوسى هو المستشار المسلم الوحيد الذى استعان به هولاكو، فقد عين هولاكو، معين الدين براونة وزيرًا له فى بلاد السلاجقة، الذين كانوا قد أعلنوا الطاعة والخضوع للتتار، كما عهد هولاكو بحكم بغداد إلى الأمير على بهادر، وعَيَّنَ معه مؤيد الدين بن العلقمى وزيرًا له، ولما توفى هذا الوزير تولى ابنه عز الدين أبو الفضل الوزارة فى بغداد، أمَّا منصب صاحب الديوان بها فقد عين فيه هولاكو المؤرخ الصاحب علاء الدين عطا ملك الجوينى (صاحب كتاب تاريخ جهانكاشى)، أى تاريخ فاتح العالم، والمقصود به «جنكيز خان». كما عَيَّنَ هولاكو أخاه شمس الدين محمد الجوينى فى منصب صاحب الديوان للبلاد كلها، وأطلق يده فى حل الأمور وعقدها(٢٦).

أما العامل الأخير الذى كان بمثابة الشرارة التى دفعت هولاكو دفعًا نحو اعتناق الإسلام، فكان يكمن فى الدليل المادى الذى كان يبحث عنه هولاكو، والذى وجد فيه ضالته على يد الطُّرُق الصوفية التى كانت قد انتشرت فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، وخاصة منذ أن أصيب هذا العالم بالغزو الصليبى فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وبعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، لذلك لجأ كثير من المسلمين إلى التصوف يلوذون به كأسلوب من أساليب المقاومة السلبية، ثم تحول هذا الدور السلبى إلى دور إيجابى، عندما بَذَلَ هؤلاء الصوفيون جهدهم كله لتحويل هؤلاء الغزاة الوثنيين إلى الإسلام(٢٧).

(٢٥) رشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ، جـ١، ص٣٣٨.

(٢٦) ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٣٣١، ٣٣٣، وابن الوردى، تاريخه، القاهرة، ١٢٨٥هـ، جـ٢، ص٢٢٩، وفؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ص ٢٧٦، ٢٧٧، ٣٢٤.

(٢٧) بطروشوفسكى، الإسلام فى إيران، ترجمة السباعى محمد السباعى، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣٣٤.

ومن أشهر هذه الطرق الصوفية التى كان لها دور كبير فى هذا المضمار، الطريقة الرفاعية التى أسسها أحمد الرفاعى، المتوفى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، فى البصرة[٢٨]، فقد كان لها دور التصدى للنشاط التبشيرى النصرانى، ونجحت كذلك فى نشر الإسلام بين التتار أنفسهم فى إيران، حيث كان لها دور محمود فى هذا النشاط الإسلامى، فقد قام أتباع الطريقة الرفاعية، أو الأحمدية، بنشر طريقتهم فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى فى إفريقيا وآسيا، وقد نزل ابن بطوطة أثناء تجواله فى آسيا الصغرى فى بعض زوايا الأحمدية، فى مدينة أزمير وبرغمه، حيث وجد أمير أزمير ومشايخها يقومون بمساعدة الفقراء والمتصوفين[٢٩].

ويذكر الديار بكرى أن طائفة الأحمدية الصوفية كان لها أثر كبير على هولاكو وابنه تكوادار، لدرجة أن هولاكو وَهَبَ لهم ابنه تكودار وسماه أحمد، فأسلم. ولكن الديار بكرى وغيره من المؤرخين المعاصرين لم يتعرضوا لشىء من قريب أو من بعيد عن إسلام هولاكو نفسه[٣٠].

أما المؤرخ الوحيد الذى انفرد بذلك من بين عامة المؤرخين فهو المؤرخ ابن الساعى، الذى ذكر ما نصه: «**وأما الطاغى هولاكو فإنه أسلم قبل وفاته بشهرين، وسبب إسلامه: لما أفسد التتار البلاد والعباد وآذَى الملة البيضاء الإسلامية وأهلها، تجرد له من الطائفة الأحمدية الوليان الكبيران العارفان بالله تعالى ورسوله ﷺ، الخاجة محمد الدربندى المولد، شيخ الجبال القفقاسية، الواسطى الأصل، العَالم العامل، والشيخ الجليل يعقوب مخدوم جهاينان، ووصلا إليه إلى «ثلث» من أعمال «سلماس»، وكان بها ومعهما جَمٌّ غفير من أتباعهما الفقراء، فبذلا له النصيحة، وقالا له: أنت مَلِكٌ جليلٌ عاقل، ومثلك من يتدين بدين الحق وينصر الحق. فقال: إنْ أقَمْتُمَا لى دليلاً ظَاهِرًا على حقيقة دين الإسلام أتبعه. فأقاما له الأدلة الشرعية النقلية، وأَيَّدَاها بالأدلة العقلية، فلم ينفع ذلك عنده، وقال: أريد حجة ظاهرة، وبرهانًا بيِّنًا يفهمه حتى رعاة الأكاديش من هؤلاء المغل والتتار.**

(٢٨) الديار بكرى، الخميس فى أحوال أنفس نفيس، جـ٢، ص٣٨٠.
(٢٩) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٩.
(٣٠) الديار بكرى، الخميس فى أحوال أنفس نفيس، جـ٢، ص٣٨١.

قالا: افْعَلْ ما بدا لك. فأمر أن تُؤَجَّجَ لهما نار عظيمة. فَأُجِّجَتْ نارٌ لم يُبْصَرْ مثلها بتلك الديار، وأمر أن يُذاب لهما النحاس، وأن تُحلل لهما السموم الناقعة، ففعل ذلك كله وَهُمَا ينظران، وكان أمام هولاكو ولد من أولاده من دون العشرة، فاختطفه الخاجة الدربندى، وصاح بأخيه فى الخرقة الشيخ يعقوب، وأمر من معهما بدخول النار، فدخلوا جميعًا النار وولد هولاكو معهم، فصار فى غيظ عظيم، وهَمٍّ وكَرْب، وما مَضَتْ ساعات قليلة حتى انكشفت النار خامدة، وخرج الدربندى ـ قدس الله سره وروحه ـ وولد هولاكو وبيده تفاحة خضراء. فقام له هولاكو وسأله عن حاله، فقال: كنت فى بستان جميل، واقتطفت من أشجاره هذه التفاحة. وشربوا أيضًا النحاس المذاب والسموم القاتلة فلم تضرهم بإذن الله تعالى، فأسلم هولاكو، وعَظَّمَ المِلَّة المحمدية، وكَفَّ عن أذية المسلمين ببركة هذه الطائفة الرفاعية المرضية، رضى الله عنهم. وكان من مشايخ الجمع الأحمدى المشاهير فى تلك الواقعة أزيد من عشرين شيخًا، مثل الشيخ صالح بن عبد الله المنيعى البطائحى، والشيخ ثابت بن عبد الله بن ثابت الواسطى، والشيخ أحمد بن على بن نعيم البغدادى، والحنبلى، وغيرهم، قدس الله أسرارهم.

هكذا الأولياء إنْ مَسَّ خَطْبٌ ... هائلٌ قَابَلُوا الأهوال

ورجال القطب الرفاعى فيهم ... يوم كشف الغطاء على الرجال

ما أقاموا دليلاً وإلا ... أيَّدُوهُ بخارق الأفعال(٣١)

فى الواقع أن معظم المصادر المعاصرة قد ذكرت هذه القصة، وأجمعت على إسلام «تكودار بن هولاكو»، ولكنها صمتت عن إسلام هولاكو نفسه، باستثناء ابن الساعى، مما يدفعنا إلى الأخذ بما ذكره عن إسلام هولاكو، فكيف يهب هولاكو ابنه للإسلام ويطلق عليه اسم أحمد، ويظل هو على الوثنية؟ وإذا كان ابن هولاكو اعتنق الإسلام وهو لا يزال صبيًا صغيرًا لم يبلغ العاشرة من عمره، لا حول له ولا قوة، وأن الأمر كله كان بأمر هولاكو سلطان الأرض كما كان يدعى، فهذا يعنى ببساطة أن هولاكو كان

(٣١) ابن الساعى، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص١٦٢، ١٦٣.

راضيًا تمامًا عن ذلك، وإسلام ابنه بين يديه يعنى إسلامه هو. وربما صمتت المصادر بشأن إسلامه، ذلك لأن هولاكو ربما صرح بإسلامه فقط لفئة الطريقة الرفاعية، حيث منعه كبرياؤه وغطرسته أن يعلن إسلامه صراحة أمام عامة الناس، وأن يعلن الإسلام الدين الرسمى لدولته!

وبعد وفاة هولاكو ووفاة ابنه (أبغا) سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، تسلطن ابن هولاكو «تكودار»، والذى تَسَمَّى بأحمد، وأعلن الإسلام الدين الرسمى لدولته، وذلك بسبب أن الشيخ الصوفى كمال الدين عبد الرحمن كان قد تنبأ له بانتقال المُلك إليه عندما أسلم وهو صغير، ولكن هذا السلطان التترى المسلم لم يستمر فى الحكم مدة طويلة، فقد ثار عليه ابن أخيه «أرغون بن أبغا» وقتله، ثم اعتلى العرش مكانه سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م(٣٢).

وباعتلاء «أرغون» علا صوت البوذية والشامانية والمسيحية واليهودية فى إيران، مما جعل معظم المؤرخين المعاصرين يتجاهلون إسلام هولاكو، حيث أصبح إسلام هولاكو وابنه أحمد كأنْ لم يكن، ولم يثمر ثمرته، حيث عاد التتار إلى سالف عهدهم يدينون بالوثنية.

ونحن لا يعنينا من هذا البحث طبيعة إسلام تتار إيران بقدر ما يهمنا إبراز حقيقة تاريخية مُهِمَّة، وهى أن هولاكو مات على دين الإسلام، على عكس ما ذكر معظم مُؤَرِّخى عصره، والمؤرخين المحدثين، من أنه مات على دين الوثنية(٣٣).

---

(٣٢) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٧، ورشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ، م٢، جـ٢، ص١٢٤،

Howorth, (Hemry), History of The Mongols From the 9th to 19 Century, part, 2, London, 1880, p. 1012.

(٣٣) الديار بكرى، الخميس فى أحوال أنفس نفيس، جـ٢، ص٣٨٠، ورجب محمد عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول، ص ٩٥.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة، جـ ٧، ١٠، ١٩٧٢.
- ابن بطوطة، تحفة النُّظَّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، ب/ ت.
- الديار بكرى، الخميس فى أحوال أنفس نفيس، جـ٢، القاهرة، ١٢٨٣ هـ.
- ابن الساعى، تاريخ الخلفاء العباسيين، تقديم عبد الرحيم يوسف الجمل، القاهرة، ١٩٩٣.
- رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع التواريخ، م٢، جـ٢، ترجمة محمد صادق نشأت، وفؤاد عبد المعطى الصياد، القاهرة، ب/ ت.
- ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠.
- العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، جـ٢٢/ مخطوط بدار الكتب برقم ٨٢٠٣ ح.
- ابن الفوطى، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، بغداد، ١٣٥١هـ.
- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ٧، القاهرة، ١٩١٤.
- المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ١٩٣٦، ١٩٣٩م.

- النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٢٩، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٤٩، معارف عامة.
- ياقوت الحموى، معجم البلدان، بيروت، ١٩٨٤.

ثانيا: المراجع العربية

- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد الحميد عابدين، إسماعيل النحراوى، القاهرة، ١٩٧٠.
- براون، تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، ترجمة أمين الشواربى، القاهرة، ١٩٨٢.
- فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ١٩٨٠.
- مصطفى طه بدر، مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة ب/ت.

ثالثا: المراجع الأجنبية

- Barthold, Turkestan Down The Mongol Invasion, London, 1928.
- Howrath, (Henry f.s.s), History of The Mongols from the 9Th To the 19Th Century, London, part 2, 1880.
- Saunders, (j.j), The History of the Mongol Conoquests, London, 1971.